المحاضرة الثالثة: من التفسير التاريخي إلى فلسفة والحضارة

التفسير الديني للتاريخ:

لم يكن هذا الاتجاه –من تفسير الأحداث وتأويلها حسب التكوين الديني– منحصرا في أمة بعينها، ولا في حقبة زمنية دون غيرها، وإنما عرف هذا الضرب من تفسير الظواهر الإنسانية والكونية والتاريخية عبر الزمن وفي كل الحضارات، غير أنه كثيرا ما ارتبط بالديانات السماوية الشهيرة الثلاث (اليهودية، المسيحية والإسلام)، وهذا الاتجاه من التفكير قد عرف باسم التفسير الديني أو اللاهوتي أو مذهب العناية الإلهية أو المشيئة الإلهية ولكنه عرف نوعا من التأصيل ومحاولة التقنين من طرف بعض المسلمين فيما يطلق عليه بالتفسير الإسلامي للتاريخ، في محاولة لبناء اتجاه مقنن جاد يتوافق مع النظرة الإسلامية لتفسير الوجود، وقد كتب في هذا الكثير الكثير مما لا يمكن إحصاؤه كله، ولكن لا بأس من الإشارة إلى البعض من هذه المؤلفات، ككتاب **نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي – نظرات وتصويبات–** لعبد العظيم محمود الديب[1]، وكذا دراسة لعماد الدين الخليل، بعنوان **التفسير الإسلامي للتاريخ**، وغيرها كثير.

يعتبر أوغست كونت أن المجتمعات البشرية مرت عبر مراحل زمنية، كل مرحلة كان لها طابعها الفكري الخاص، فبعد أن استأنس الإنسان واستقر في الأرض متخليا عن حياة البدائية والترحال، بدأ بتنظيم حياته اليومية وتقنين معاملاته وسلوكاته، غير أنه ومن الناحية الفكرية اطمأن للدين الذي وجد فيه ملجأ ضد كل ما يخيفه أو يجهله في هذا العالم او في نفسه، فاتجه الفكر البشري الى تعليل الظواهر الطبيعية بأسباب غريبة مفارقة للطبيعة، فمثلا: كان العالم بأسره مسرحاً لقوى إلهية مختلفة تدير الاشياء، بحسب اغراضها الحيوية المشابهة لأغراض الانسان وأهوائه، ولهذه الحالة اللاهوتية ثلاثة مستويات:
المستوى الاول:– عبادة الاشياء والظواهر المادية، لذاتها وهي غير عبادة الاصنام، وثانيها:– عبادة قوة الطبيعة المجردة والقول بتعدد الآلهة، وثالثها:– عبادة الله الواحد، وهو مذهب التوحيد الذي يرى ان الفاعل الحقيقي هو الله ذاته ولا فاعل سواه[2].

وكما تلقى المؤرخون والمفكرون المسلمون منذ العصور الوسطى إلى ما بعد ابن خلدون انتقادات كثيرة بخصوص تفسيرهم للتاريخ على أنهم أميل للتفسير الديني الّإسلامي، ولم يسلم من هذا النقد حتى مفكرو القرن

---

[1] عبد العظيم محمود الديب، نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي –نظرات وتصويبات–، ط1، دار البشير للنشور والتوزيع، عمان، 1994 ص52 وما يليها.

[2] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص277 .

العشرين مثل مالك بن نبي وغازي التوبة، ومحمد عمارة وإدوارد سعيد عبد الوهاب المسيري، ولكن بالمقابل نجد أن أكابر المفكرين والمثقفين في أوروبا منذ العصر الحديث قد وجه لهم نفس الانتقاد تقريبا، منذ القديس أوغسطين وتوما الإكويني[3] إلى كهيجل وتوينبي وول ديورانت واشبنجلر وحتى فرانسيس فوكوياما[4]، على أنهم لا يختلفون عن رجال الدين الكنسيين كثيرا في تفسيرهم للأحداث[5]، ولا سيما إذا تعلم الأمر بطرح قضايا تاريخية في شكل عموميات مرسلة كقضية الحضارة الغربية مثلا[6].

تفاسير أخرى للتاريخ:

لا يجب التركيز كثيرا على مذاهب المؤرخين في تفسيرهم للتاريخ لأن الأمر متشعب جدا لدرجة أننا لا يمكن أن نحصي اتجاهات المفسرين للتاريخ أو لأحداث التاريخ، لكننا اقتصرنا على ما اشتهر من التفسيرات كالمذهب الديني، ولا بأس أن نعجل في ذكر تفسيرات أخرى اشتهرت لدى المؤرخين عبر العالم، التفسير البطولي، الذي يقول أن التاريخ في حقيقته من صنع الأبطال، غذ أن الحدث التاريخي سيكون ذا تأثير مشتق من تأثير الإنسان البطل نفسه، أو الأمة ذات البطولات، وهو ما يتقاطع مع التفسير العنصري أو التفسير القومي للتاريخ الذي قوم عليه مجموعة من المؤرخين والمفكرين محاولين بعث تراث أمة ما في مرحلة ما، وعادة ما تكون أعمالهم مشوبة بالتعظيم المبالغ فيه بالنسبة لتلك الأمة وبالتحقير والتقزيم لغيرها من الأمم المجاورة سواء كانت أمة عدوة او حليفة.

يمكننا أن نذكر التفسير البيئي الذي يعتمد على التصنيفات الإقليمية للظواهر الجغرافية المختلفة التي تؤثر في تشكيل الاحداث التاريخية والوعي الحضاري[7]، والتي كان لها، وسيكون لها في المستقبل دور كبير في ارتسام التاريخ البشري في ظل التقدم التقني، فبحسب اصحاب هذه النظرية ان طبيعة الارض والمناخ والموقع الجغرافي لا تنفك تؤثر في تكوين الانسان وقدراته العملية وقابلياته العقلية والابداعية، وجميعها تدفع الانسان في ان يدفع بتاريخه باتجاه معين، فالحتمية الجغرافية !! هي نواة فكرة التاريخ عند مفسري التاريخ على اساس جغرافي، فلا مناص من القول ان التاريخ في كثير من حقبه حبيس الجغرافية، ومن هذا فان الانسان الذي يمثل اهم ركن من اركان التاريخ

---

(3) قادة جليد، التفسير الديني المسيحي للتاريخ، صحيفة المثقف، الصادرة عن مؤسسة المثقف العربي، عدد 4350، 03/ 08/ 2018.

(4) بخصوص فرانسيس فوكوياما؛ أنظر: فيصل مبرك، "رؤية نقدية في مقاربة النهايات –نهاية التاريخ نموذجا–"، مجلة الحوار الثقافي، الصادرة عن مخبر حوار الحضارات، التنوع الثقافي وفلسفة السلم، جامعة مستغانم، خريف وشتاء 2016، ص45 وما يليها.

(5) البان ج. ويدجيري، المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفشيوس إلى توينبي، ترجمة وتقيق ذوقان قرقوط، ط1، دار القلم، دمشق، 2017، ص104.

(6) السيد أمين شبلي، "آرنولد توينبي ورؤيته الدينية في دراسة التاريخ"، صحيفة الحياة، المملكة العربية السعودية، 11 افريل 2014.

(7) حسين مؤنس، الحضارة –دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها–، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1978، ص27 وما يليها.

قد خاض بقابلياته المتوفرة ترابطية العلاقة بين البيئة الطبيعية وقدراته وسلوكه؛ فأفضت هذه الترابطية الى صناعة الحضارة القائمة على تاريخ الانسان التراكمي(8).

إن ما ذكرنا من التفاسير السابقة لا يرقى أن يكون نظرية في فلسفة التاريخ والحضارة –نستثني من هذا التفسير المادي للتاريخ–، ولكن يمكن أن نقول أنها عبارة عن مقاربات فكرية لتفسير التاريخ أو لدراسة التاريخ، لكن هذه المقاربات قد تأخذ خطورة أكبر إذا ما تعلق الأمر بالحضارة، فإن تلك التفسيرات قد تتحول إلى أسس حضارية لا تتحقق الحضارة إلا بها... فمصر هبة النيل، وميزوبوتاميا جنة النهرين، والحضارة الصينية تدين ليانغ تسي كيانغ وتشانغ جيانغ بكال الحكمة التي عرفتها الصين منذ كونفشيوس، وتاريخ حضارات البحر المتوسط الحديث هو صراع من أجل العدالة والسلام بين الخير والشر، الإسلام والمسيحية/ المسيحية والإسلام.

إن ما بين استقلال التاريخ لنفسه بميدان يخصه وبين استقلال فلسفة التاريخ بديمانها الخاص؛ فاصلا زمنيا يقارب الثمانية عشر قرنا، على اعتبار أن هيرودوتتس في القرن الخامس ق.م هو معلم استقلال التاريخ بميدانه خاص، حتى ابن خلدون في القرن 14 م إذا ما اعتبرنا ابن خلدون هو الإرهاص الأول الذي ظهر معه التفلسف في التاريخ والحضارة(9)، في هذه الفترة الطويلة، تبلورت أفكار أدبية ودينية واقتصادية شعر الإنسان فيها بدوائر الانتماء التي تم ترسيخها في الثقافة الإنسانية، لعب فيها الزمن الدور الرئيس، حتى اكتملت صورة الشرق والغرب وتبين الفرق الواضح بينهما.

ذكر المفكر العراقي علي حسين الجابري أنه لا يمكن تصور أي تعريف لفلسفة التاريخ والحضارة من غير المرور على الإنسان صانع التاريخ، المساهم فيه بصموده من أجل البقاء والتقدم والإبداع وكذا التنافس الشريف من أجل الحياة في الحاضر والمستقبل(10)، وهذا ما لا يتعارض مع من يؤمن بأن الحضارة لها طابع أخلاقي في الأساس، وأن ثمة ارتباطا وثيقا بين الحضارة ونظرتنا للوجود والكون(11)، وهذا بدوره يقلل من شأن الزمن لصالح

---

(8) حامد العلي، "التفسير البيئي للتاريخ"، الاتحاد الدولي للمؤرخين للتنمية والثقافة والعلوم الاجتماعية، النسخة الإلكترونية.
http://int-historians.com/article/2650

(9) صائب عبد الحميد، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي –دراسة مقارنة بالمدارس الغربية المعاصرة–، دار الهادي، د.م، د.ت، ص09.

(10) علي حسين الجابري، فلسفة التاريخ وقانون الحضارة –قراءة مرآوية جديدة–، ضمن الكتاب الجماعي فلسفة التاريخ –جدل البداية النهاية والعود الدائم–، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، دار الروافد الثقافية –ناشرون–، بيروت، 2012، ص22.

(11) ألبرت أشفيستر، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

الإنسان الذي يشعر بالزمن، وفي هذا الإطار نضرب المثال بهنري برغسون القائل أن الزمن فقط حاضر، وما الماضي والمستقبل إلا ما نستحضره في الحاضر[12].

ولكن من غير المنصف أن نقصي الزمن كعامل مهم في تأسيس أي حضارة كانت، فقد ترسخ في ذهن كل باحث أن "الزمن"، من مجالات البحث التي تتكامل فيها المنظورات العلمية والتقنية والفلسفية والعقدية والدينية والاجتماعية، بل الزمن هو السلم والمقياس الذي يدرك من خلاله التقدم والتطور[13].

الحضارة والحرية

لا بد أن هناك خلطا كبيرا –لدى الكثيرين– بين التحولات الكبرى الحاصلة في تاريخ الإنسانية وبين الحضارة، كتلك الاحداث التي عرفها الإنسان وأثرت في نفسيته وتكوينه وأحواله ونشاطاته، مثل ابتكار الكتابة في حدود 3200 ق.م، أو البدايات الأولى لاستعمال النار، وبداية استخدام الإنسان للمعادن كالبرونز وغيرها، فتلك الاحداث التاريخية عادة ما تؤخذ على أنها من عمل الحضارة ذاتها، وهو طرح يستهوي كل من يصادفه، وفي هذا يقول الدكتور حسين مؤنس: «لِأَنَّ بَعْضَ الْمُشْتَغِلِينَ بِالتَّارِيخِ يَحْسَبُونَ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا يُسَمَّى التَّارِيخُ وَشَيْئًا آخَرَ يُسَمَّى الْحَضَارَةُ، وَهُمْ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ دِرَاسَةَ حَضَارَةٍ مَا؛ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ تَارِيخَهُ السَّيَاسِيَّ، لِأَنَّ الْحَضَارَةَ فِي رَأْيِهِمْ ثَمْرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ التَّارِيخِ السِّيَاسِيِّ...»[14]

ولكن إذا أردنا أن نميز بشكل جيد بين الأحداث التاريخية أو المسار التاريخي وبين الحضارة؛ فإنه يجب علينا أن نعترف بأن هناك تشابك وتداخل بين المفهومين، ولكن هناك عمل جماعي قام به الإنسان ضمن المجموعة كافة كقرار الإنسان البدائي الخروج من الغابات والجبال نحو السهول والأماكن المفتوحة، فقد فعل الإنسان هذا في شكل جماعة بعد أن تكاثر في غابته وأحس بالإطمئنان والأمان والقدرة على مغادرة الغابة نحو الأرض المكشوفة[15]، ولكن أيضا هناك ما قام به الإنسان الفرد فيما نسميه بالإبداع، وهو حدث تاريخي له نتائجه وتأثيراته على المجتمع والسياسة والفكر، فعلى سبيل المثال؛ لا نستغرب أبدا من الإنسان الإغريقي الذي كان يتساءل عن الماء وقدرته على حمل الأشياء العظيمة على سطحه، ولكنه عاجز عن حمل مسمار صغير جدا، ولو فكر كثير من الناس في هذه القضية فإن أرخميدس هو الذي فك رموزها واكتشف قوانينها وأعطى لها تفسيرا علميا ثابتا يمكن أن تنتفع به الإنسانية كلها، وبالمقابل لا نستغرب أيضا في تساؤل الإنسان المعاصر اليوم عن إمكانيه

---

[12] علي حسين الجابري، مرجع سابق، ص32.

[13] المرجع نفسه، ص34.

[14] حسين مؤنس، مرجع سابق، ص94.

[15] حسين مؤنس، مرجع سابق، ص94.

نقل معلومات صوتية ومرئية عبر موجات أثيرية إلى مسافات بعيدة جدا، غير أن تفكير الإنسان الإغريقي في قضيته تلك وفي يومنا هذا يعتبر عبثا يليق بالصبيان، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن نجد لدى الإغريق القدامى من يفكر في قضية الإنسان المعاصر، وإن وجد فإنه يفكر بالسحر أو الخرافة لا بالعلم والصناعة.

من خلال ما سبق يمكن أن نفكر في الموضوع ونستشعر ذلك الاختلاف الطفيف بن عمل الإنسان في التاريخ، وتأثير ذلك العمل على البيئة وعلى الجماعة، وبين عمل الجماعة الذي أملته ظروف معينة، ولعل هناك من هم ضمن الجماعة من رفضوا الانصياع للجماعة، ولعلهم فعلوا ذلك ولكنهم غير راضين، ولكن غاب تأثيرهم أمام تأثير الأغلبية، ومنه فإن التفسير التاريخي يعنى بالحدث الفارق وآثاره، أو الإبداع الفردي وتأثيراته، والباراديمات التي تحتفظ بسر التغير[16]، في حين مسار الحضارة يعنى بمستوى التفكير العام والسلوك الجماعي، لهذا فإن المسار التاريخي يبدو أكثر فوضوية، بينما المسار الحضاري يبدو أكثر تناسق ووضوح، إما نحو التقدم وإما في شكل مسار حلزوني دوراني.

[16] كتب جول باركر آرثر كتابه حول سر التغير وصناعة المستقبل، تحت عنوان: **البراديمات، السلاح السري لخوض معركة التطور، سر التغيير وأسس صناعة المستقبل**، ترجمه سليم نطور، نشر هذا الكتاب في طبعته المعربة في دار العلم للملايين ببيروت، سنة 2013.